«نحيب البحيرة» في أعماقنا وعلى الأرض

ماجد صالح السامرائي*

عزيزي عبد الرحمن[1]

وأنا أقرأ عملك الجديد هذا أجدُكَ كمن يؤلِّف قصصًا أقربَ إلى القصص المتخيّلة منها إلى الواقع لفداحة وقائعها، محاولاً استعادةَ تمرّد شبابك الأول. إنك تستعيد، هنا، أطرافًا من طفولتك التي تجدها جميلةً. كما تستعيد شبابك الثاني الذي كان، كشبابنا جميعًا، شبابًا مدمّرًا، تاركًا كلَّ شيء للعراء، ثم تعمد إلى تعرية ذاتك وذواتنا معك مع ما لحق بحياتنا من دمار. ولئن حاولتَ أن تبدو صافيًا مرحًا، فأنت لم تستطع إخفاءَ الجراح التي كشفتْ عنها صورٌ ومواقفُ لم تستطع انتزاعَها من عقلك.

أُدرك أنّ الخيبة رفيقةُ جيلنا؛ والسبب الأساس هو أنّ حلمنا كان أكبرَ من واقعنا، بل قل إنّ واقعنا كان يتراجع بينما كنا نريد أن نتقدّم به وبأنفسنا... نحن الذين اقتبسنا جوهرَ الحقيقة من أنفسنا. ولذلك عكسنا ذواتنا في ما نكتب، وكانت هذه الذواتُ على جانبٍ غير يسيرٍ من خصب التصوّر الشعريّ.

لقد قرأنا قصيدةَ حيواتنا قراءةً منفعلةً بأزمة العصر، وكتبنا قصيدةً لم تبحث عن التوازي مع ما قرأنا قدرَ سعينا إلى الخروج عليه. وقرأنا القصةَ ففسّرنا دلالاتها بما عشناه، ويوم كتب بعضُنا «قصته» جعل منها جوهرًا آخر للحقيقة. أما حين قرأنا الروايةَ فبقدر ما فتنتْنا بعضُ شخصيّاتها عمدنا الى

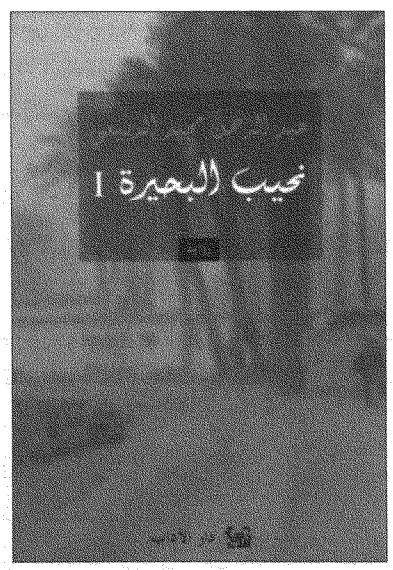

إحالتها على أحلامنا والواقع. وقد وجدنا بين هذه الشخصيّات مَنْ يتقدّم على أرض الواقع بتوجّس أو يتراجع منكسرًا. إلاّ أننا كنا نجتمع إلى هؤلاء لنقول لهم من باب العزاء: «لأمثالكم تشرق الشمسُ.» وإذا بنا، في النهاية، نتبعثر حيث تبعثروا قبلنا، ولم يبق من أحلامنا تلك سوى الذكريات التي تكتب أنت اليوم طرفًا منها.

لماذا تكتب عن الماضي؟ أمن أجل المصالحة معه؟ أمْ لتعمّق هوّةَ الخلاف كي تقطعَ على نفسك طريقَ العودة إليه؟ ولكني لا أكتمك القولَ إنني وجدتُ هذا الماضي الذي كتبتَ عنه ماضيَيْن: واحدًا تحنّ إليه؛ وآخرَ تشكوه لفداحة خسائرك فيه حتى بتّ لا تجد أمامك إلاّ الانسحاب منه. ومع ذلك وجدتكَ في لحظات العبور الصعب تهتف مع المتنبّي: «وأنّى شئتِ يا طُرُقي فكوني...».

هذا كلّه يعيدني إلى البدايات. فأنت يومَ بدأتَ الكتابة، بدأتَها بلغة الحداثة، بلغة الشعر والتأثّر الشعريّ. وكنا، نحن الجيل، مستلَبين للشعر والشعريّ. وأجدُني اليوم أفسّر تلك اللغة بأنها كانت «هروبًا آخر،» ولكنْ من «لغة الواقع» لا من الواقع نفسه. في تلك السنوات، سنواتِ الستينيّات، أصدر السوريّ هاني الراهب روايته الأولى، **المهزومون**. كانت الهزيمة تتكرّس إحساسًا، ثم غدت واقعًا. ويومَ التقيتُكَ، أولَ مرة، ربيعَ العام ١٩٦٤، وكنتُ قرأتُ لك كتاباتٍ متناثرةً، كحياتك التي عرفتُها من بعد، وجدتُكَ كمن يحاول الانتصارَ على هزيمته بالكتابة. إلاّ ان الهزيمة تغلّبتْ عليكَ يومَ تسلّلتْ إلى عمقِ ما تكتب.

أذكر يومها: كان كتابٌ آخر مهمّ قد صدر (١٩٦٣)، هو **العرب وتجربة المأساة** لصدقي إسماعيل. وقد تناول تجربةَ المأساة من الجاهليّة إلى عصرنا، الذي تسود فيه، بحسب إسماعيل، أوهامٌ أربعة: وهم الحقيقة، ووهم الاستقرار، ووهم الفرديّة، ووهم الذاتيّة. وبقدْر ما وجدتُ هذا الكتاب يحفّزني إلى تجاوز «أوهامي،» وجدتُه يشلّني لأنه وضعني وجهًا لوجه أمام ما كنتُ أعتقد أنه حقيقة ولم يكن سوى وهم. أذْكر هذا لأقول إنّ المشترك بيننا، جيلاً وأصدقاء، كان يستوي عند عذابات الروح واعتمالات الفكر هذه. ولم يكن ما فعلناه، حتى تجاربَ الحبّ الخائبة، أكثرَ من هربٍ من مواجهة «المصير.» وقد اكتشفنا الكثيرَ من الكذب. ومررنا بفتراتٍ أخرى كان همُّنا الأكبرُ فيها

---

* ـ كاتب من العراق.

١ ـ الرسالة ـ المقال موجهة الى الروائيّ عبد الرحمن مجيد الربيعي حول كتابه، **نحيب البحيرة** (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٩).

المحافظةَ على يقيننا الذاتيّ. إلاّ أننا وجدنا أنفسَنا أمام واقعٍ مشطورٍ إلى شطرين: فواقعٌ تعلنه اللغة، وآخرُ كان حتميّاً، وكلاهما غيرُ مكتمل.

لكنّ الأسوأ من هذا كلّه هو ما أعقب الحقبةَ التي ينقل عملُكَ هذا طرفًا منها. إنها حقبةُ الفقر المرعب. صرنا نسأل عن «الغاية الأخيرة» من عمليّات التجويع التي طاولتنا بشراسة، متى تنتهي؟ ونتساءل: أيمكن من بعد كلّ الذي عشناه أن تبدأ حياةٌ جديدةٌ للعراقيين؟ لقد أصبحنا خارج التاريخ، وجرى النظرُ إلينا على أننا كذلك. وأحدُ الذين تحدّثتَ عنهم في عملك هذا عاش، من بعد مغادرتك البلدَ، ثمانيةَ أعوام ببذلةٍ شتويّةٍ واحدة. وكان حين يسأله أحدٌ عن دواعي «تمسّكه» بها يقول مازحًا، وهو يحاول إخفاءَ الجرح، بأنّ فيها صفتين محبّبتين: الفرادة والقِدَم. ويومَ وجدها قد بليتْ ولم تنتهِ سنواتُ الحصار، لم يجد «للتعويض» منها إلاّ «سوقَ البالات.» ولم يكن هو الوحيد الذي فعل ذلك!

كنتَ تخشى على كتبك، كما تقول، أن تباعَ من بعدك في «سوق السراي.» ربما بلغك أنّ هذه السوق لم تعد تستوعب ما كان يخرج من بيوت المثقفين العراقيين من كتبٍ تباع لتغطية متطلّبات الحياة. وقد فَتح شارعُ المتنبّي، المجاورُ للسراي، ضفّتيه لاستقبال الكتب التي كان أصحابُها يخرجون بها مع دموعهم وآهاتهم وكأنهم يودّعون عزيزًا رحل. كنتُ أترقّب صباحَ كلّ جمعة، أن أرى أحدَهم وقد دعا أصحابَه إلى أن يحملوا معه نعشًا مليئًا بالكتب، فيوارى «الجنازة» بين آلاف الكتب التي تكون قد سبقته إلى الشارع . لكنّ أحدًا لم يفعل ذلك «خوفَ الفضيحة،» رغم أنّ أسماء كثيرةً أصبحتْ معروفةً بسبب وجودها مدوّنةً على الكتب المبيعة. إنني أكلّمك عن «سنوات الحصار» التي لم تكتوِ بنيرانها كما اكتوينا، يومَ لم يعد لوجودنا أيُّ بعدٍ إنسانيّ أو تاريخيّ.

وما كانت محصّلة هذا كلّه؟ كانت الغزوَ، والاحتلالَ، والموتَ المضاعف آلافَ المرات، وخياناتٍ لا تُحصى، وخونةً يتباهوْن بخياناتهم لبلدهم وناسه، وشعبًا مشرّدًا. فإلى أين تريد للثقافة والمثقف أن ينتهيا في واقعٍ كهذا؟

إنّ «نحيبَ البحيرة» أصبح في واقعٍ كهذا صراخًا وعويلاً.. ولا مَن يسمع! ولو أتيح لكَ أن تعود اليوم إلى بلدك، فقد تخرج بجزءٍ آخر من الكتاب، وستسمّيه **الجنون الأخير**. قد تسألني : ولماذا لم يكتب زملاؤنا شيئًا من هذا؟ فأجيبك: البعضُ كَتب ونَشر؛ والبعضُ كَتب ولم ينشرْ بعد؛ وبعضٌ ثالث التهمتْه «المؤسّساتُ ـ الواجهاتُ» وأغرتْه بأموالها، فلم يعد يرى إلاّ الجانبَ الذي تريد منه أن لا يرى سواه. بل إنّ بعضَهم راح يصرّح بأنه لم يجد «الحريّة» من قبلُ لتنفيذ «مشروعاته» في الكتابة، وها هو يريد اليومَ أن يبدأ «معوِّضًا».. ومنهم الكاتبة التي وَجدتْ نفسَها، كما قالت لإحدى إذاعات الاحتلال، تعيش الحريّةَ لأوّل مرة بعد أن افتقدتها أربعين عامًا (أيْ بين ١٩٦٣ و٢٠٠٣ عام الاحتلال)، وهي اليساريّة التي باعت اليسارَ في لحظة انكساره، وعاشت سنواتِها الأخرى في ظلّ المؤسّسة الثقافيّة ورعايتها!

اليوم، في هذا البلد، دُمّرَ التاريخُ والواقعُ تدميرًا كاملاً. والغزاة الذين فعلوا هذا لهم شكلُ البشر، ولكنهم مفرغون من كلّ روح إنسانيّ. أما مَن جاؤوا معهم على متن دبّاباتهم، فهم غرباءُ عن البلد، حيويّتُهم في غرائزهم، وقد فجّروا هذه الغرائزَ دمارًا وإحراقًا وسلبًا ونهبًا، وبينهم كتّابٌ ارتضوْا أن يكونوا «أدلاّء» للغازي المحتلّ... وعلى ماذا؟ على التدمير والتخريب.

❖ ❖

قد يقول قارئ لا يعرف فداحةَ الحقبة التي تتحدّث عنها إنك في كتابك هذا «تلهو» على هواك. وهذه نظرةٌ سطحيّةٌ الى العمل؛ فالمسألة أكثرُ عمقًا لأنك تدعونا الى إعادة قراءةِ ما حصل. وقد يجد قارئ في ما كتبتَ ضربًا من الانفجار الذاتيّ، وهو كذلك؛ فما أتيتنا به ليس قصصًا متخيّلة بل وقائعُ. ليس ما هو خفيٌّ في ما يستند إليه عملُك؛ كلّ شيء فيه مكشوفٌ، ومعروضٌ بطريقةٍ دالّةٍ، إشاراتُها الأسماءُ التي لم يستطع التحويرُ أن يخفيَها، وكذلك الأماكن والحالات. وقد جعلتَ الانتباهَ يتوجّه إليك أولاً، على الرغم من أنك في عالمك الشخصيّ هذا قد منحتَ الآخرين «حقَّ الدخول» إليه، فدخلوه معك، وأنت ترجو منهم «المشاركة» التي تساعدك في دعم المعاني التي يهمّك تأكيدَها.

وأنت بوصفك «بطلاً» لهذا العمل لم تتمكّنْ من تحرير نفسك من الصراعات التي سادت تلك الحقبةَ وما بعدها، ولكنك لم تقع في أوهامها. بل قد يجدك القارئ، كما وجدتك، حريصًا على التعريف بنفسك بما هو أقوى من المميّزات الذاتيّة وأكبرُ أثرًا. فأنت «الشاعر» الذي لم يتحرّرْ من رغباته الشخصيّة، إلاّ أنه عرف كيف يعيش تلك الرغبات وإن بطيشٍ أحيانًا!

أيمكن القولُ إنّ عودتك إلى الحياة الأولى جاءت سعيًا إلى إنقاذ الطفولة في داخلك؟ أمْ هو بعضٌ من عذابات الضمير جرّاء ما ألحقتَ بتلك الطفولة من شقاءٍ يومَ كبرتَ؟ أجد كلماتك في هذا

العمل وقد انبعثتْ من ذلك كلّه، أنت الذي حاولتَ الخروجَ من أسطورة انطوت على رؤًى محطّمة، حتى أصبح القبضُ على رؤيا بحجم ما عاش الواحدُ منا من أحلامٍ مسألةً صعبة. وما من يقين إيجابيّ، بل أصبح كلُّ ما حولنا مثارًا للرعب، ودافعًا للهرب نحو غربةٍ ذاتيّةٍ تلتهم كلّ التطلّعات. هكذا لم نعد نمسك بالكلمات كما ينبغي، وصار إحساسُنا بالمكان ضعيفًا. ولم يَضَعْنا هذا في بحثٍ لا ينتهي، وإنما ألقانا إلى تيه لم نعرفْ له حدودًا، فإذا بنا نجرّ الحياةَ وراءنا بدلاً من أن تندفعَ بنا إلى أمام.

أجد هذا كلّه في نسق عباراتك المهشّم، في انسيابها وسقطاتها، وفي تسارعها وهي تغالب وصفَ ما يحدث. أحيانًا تخترق «رخاوةَ» أشكال الكتابة، وأحيانًا تستسلم للانكسار الداخليّ. وكما أدخلْتنا في أعماق حياتك، أدخلْتنا في أعماق حيوات الآخرين. كنتَ منفيّاً في ذاتك والخارج، وعبارتك هي الأخرى. وكنتَ تقع على هذه العبارة علّكَ تجد فيها ما يعيد التوازنَ إلى حياتك المستلَبة، ولكنها في أكثر المرات كانت تخذلك لفرطِ ما يتعالى منها من نحيب.

هنا أفهم قصدكَ وأنت تصوغُ ما حدث بفجاجته وقسوة معناه. ربما كنتَ تدرك وأنت تفعل هذا أنّ القبض على الانفعال لا يكون إلاّ بإثارته. وكتبتَ بصوتٍ عالٍ بعد أن وجدتَ أنّ الصوتَ الخفيضَ لم يعد مجديًا. فضربتَ في كلّ اتجاه، وكشفتَ عمّا قد لا ينبغي الكشفُ عنه، وبطريقةٍ ينقصها «الأدبُ» أحيانًا، مندفعًا نحو نهاياتٍ وَجدتَ ـ بعد أن أصبحتَ بعيدًا في المكان والزمان ـ أنّ البوحَ بها أصبح ممكنًا.

لماذا تكتب هذا وأنت/ نحن ندرك أنْ ليس في مقدورنا أن نعيد خلقَ الواقع من جديد لَيْنتج منه ما نريد؟ فعلى الرغم من أننا كنا قرأنا عند مَن كتبوا قبلنا الخيبةَ ذاتَها، فإننا لم نأخذ عنهم شيئًا من العبرة والتجربة، فغصنا في أوحال الزمن كما غاصوا!

لقد كانت لكلّ منا «أساطيرُه،» إلاّ أننا فوجئنا بها وقد امّحت، وبشكلٍ موجِّه. كنا نريد لأنفسنا دورَ الريادة في جيلنا، وقد أعددنا أنفسنا لذلك بقدراتنا الذاتيّة. فإذا بنا نجد أنفسنا موضوعين في عداد العابرين!

هنا بدأت المدينةُ، التي كانت الحياةُ فيها حلمَنا الجماعيّ، تفقد بُعدها ومعناها وتتلاشى ظلالُها في نفوسنا. صرنا نراها وكأنْ لا شكلَ لها بفعل ما لحقها من تشويهٍ من الداخل. فماذا تفعل حين تجد «مدينةَ الحلم» تتهاوى بحلمك، وتصبح هي نفسُها بلا معنى؟ هل تحتفي بحاضرٍ لم يعد لك أو منك؟ أمْ تنتظر مستقبلاً لا تعرف عنه شيئًا؟ أمْ تعود إلى الماضي وأنتَ الذي أدركتَ أنّ للتاريخ معنًى ودلالة، فماذا بقي لك من التاريخ؟

كان صديقُك، العزيري، على حقّ إذًا في سخريته المريرة. لم تكن رؤيته ساذجة أو تخلو من الاستشراف، بل يبدو أنه كان يأخذ الأمور بنتائجها، ويدرك واقعنَا وقد جرى اختزالُ التاريخ فيه على مرأى ومسمع منه، وأريدَ له أن يكون شاهدًا على ما يحدث ـ وهنا المفارقة القاتلة، وربما هي التي قتلتْه يومَ راح يحصي الخسائرَ في ليلة غربةٍ مبهمة!

وشيئًا فشيئًا بدأنا ندرك أنّ البيت يحترق. كان البعض منا لا يريد أن يستجيب لما كان يسمع، شأننا شأن ذلك الذي قيل له إنّ بيته يحترق فردّ: «المفتاحُ في جيبي!»

❖ ❖

كأني بكَ في هذا الكتاب، وفي كتاب لكَ آخر سبقه (**أيّة حياةٍ هي**)، كمن يريد القولَ: هذه هي الحياة التي حييتُ، أنا الكاتب الذي كرّستُ عمري للكتابة، فكتبتُ أعمالاً عديدةً توزّعتْ بين القصة والرواية والشعر و«عبث الحياة» أحيانًا، وإنّ ما أكتبه اليوم ليس اهتمامًا أدبيّاً جديدًا بقدر ما هو كشفٌ للمستور. فبعد أن لعبتُ كلّ الأدوار مع أبطالي، لماذا لا ألعب الدورَ هذه المرةَ مع نفسي؟!

لقد جمعتَ تشظّيات تلك الحياة من عالمٍ مدمَّر، هو عالمكَ الشخصيّ في حقبةٍ عسيرةٍ من حقب العمر، حتى بدت في اجتماعها وكأنها عالمُ أشباح لا يسهل الركونُ إليه وتصديقُ ما يجري فيه، فكيف باحتماله؟! وتحت هذا الضوء القاسي، والساخر أيضًا، أعدتَ صياغةَ واقعٍ نتساءل اليوم أمامه بمزيد العجب: كيف عشناه فاحتملناه؟!

ولكنْ ماذا عنّا اليوم؟ ربما تساءلتَ عن ذلك غيرَ مرة، وأنت تعيش في مغرب الوطن، فأقول لك: لقد حلّ الليلُ في بيوتنا والدروب. ولكنْ هل استسلمنا لما نحن فيه؟ لقد علّمتنا الكتابةُ أنّ هناك صيغًا متعدّدةً للحياة واللغة؛ فليست «لغةُ الليل» وحدها التي يُمْكن أن تكون، وإنما هناك لغاتٌ أخرى علينا أن نحْشدَها بالحياة. فللغة الكثيرُ الذي تريد اليومَ أن تقوله، وما تقوله لا بدّ أن يكون جوهريّاً بالنسبة إلى التاريخ. ولذلك ينبغي أن نقولَ ونكتبَ دون أن نأبه لهذه الأحجار التي رماها الغرباءُ عن حياتنا وتاريخنا في الطرقات لتصدّنا عن المسار!

بغداد